ثقافة التسامح ودورها في بناء المجتمع العراقي

م.د. نادية فاضل عباس فضلي
قسم الدراسات الاسيوية

ان الاسرة هي الوحدة البشرية الاولى التي يبنى على اساسها المجتمع ، ولذلك يتطلب بناء ها وجود تنمية تربوية ودينية ونفسية واجتماعية وفكرية ، فأفراد الاسرة عندما يكون منهاجهم السلوكي نابع من اسس سليمية يكون المجتمع قد سار على النهج القويم ، ويأخذ هذا المجتمع دوره الصحيح بين الامم .

وموضوعنا هو ثقافة التسامح ودورها في بناء وتهيأة النشئ الجديد في ظل الواقع الذي يعيشه مجتمعنا فنحن بحاجة ماسة لتنمية هذا المفهوم وتطويرة لخلق مجتمع خال من العدوات والانعزالية والتعقيدات ، فمنذ تشكل اول مجتمع بشري على الارض لم تقم المجتمعات البشرية الا على التضامن والتكافل الذي يوفر للمجتمع مصالح مشتركة ،فالانسان مدني بالطبع كما هو مذهب علماء الاجتماع والفلاسفة منذ ارسطو وحتى عصرنا هذا ، فالانسان لايستطيع ان يعيش الافي تكوينات اجتماعية تتكافل فيما بينها على توفير مستلزمات الحياة ليكون هذا الاجتماع مهما كان صغيراً الضمانة الاهم في حفظ مصالح افرادها وحقوقهم مايولد لدى جميع افرادها شعوراً متكافئاً بالمسؤولية تجاهها ، اذن لابد من التوافق على لغة مشتركة وعادات وتقاليد مشتركة بل حتى معتقدات مشتركة ، وكل ذلك لايتحقق له وجود الا على مبادئ تطبع بطابعها ثقافة المجتمع حتى في ابسط صورها .

والتسامح هو جزء اساس في بناء المجتمع وهي لغة مشتقة من السماحة اي الجود، ويقال اسمح وسامح اي وافقني على المطلوب ، ويراد بالتسامح اصطلاحاً موقفاً ايجابياً متفهماً من العقائد والافكار يسمح بتعايش الرؤى والاتجاهات المختلفة بعيداً عن الاحتراب والاقصاء على اساس شرعية الآخر المختلف دينياً وسياسياً وحرية التعبير عن آرائه وعقيدته .

وفكرة التسامح تعني القدرة على تحمل الآخر والصبر على اشياء لايحبها الانسان او يرغب بها ، بل يعدها منافية لمنظومته الفكرية والاخلاقية ، ذلك لان فكرة قبول الآخر والتسامح والتعايش تعني تجاوز سبل الانقسام الذي يقوم على اساس الدم والقومية والدين والطائفة والعشيرة.

كما يعني التسامح حق العيش على نحو مختلف سواء بممارسة حق التعبير عن الرأي اوحق الاعتقاد اوحق التنظيم اوحق المشاركة السياسية وفي المناصب العليا فحقوق الانسان قامت على هذه المبادئ منذ الثورة الفرنسية في العام 1789 وقبلها الدستور الامريكي في العام 1776 وذلك بتأكيد حق كل فرد بأن لايكون ثمة قيد على حريته اذا احترم حريات وحقوق الآخرين.

ولما كان التسامح نسقاً قيمياً تتوقف فاعليته على وجود ارضية صالحة واجواء سليمة تساعد على تفاعل قيمه ، لذا يشترط اولاً إيقاف نزيف الكراهية والحقد وقطع دابرالعنف والاحتراب وتجفيف منابع اللاتسامح والارهاب لاعلى مستوى الممارسة فقط وانما اجتثاثها كثقافة وعقل ومنهج .

واذا ماأخذنا المجتمع العراقي بحسب العديد من الطروحات والافكارنجد انه مجتمع متعدد من النواحي القومية والدينية والاثنية والطائفية ، وعرف ثقافة التسامح والتعايش وقبول الآخر منذ حقب سابقة حيث لم تحدث اية اشتباكات عنيفة اواستهداف على الهوية الا وفق مساحات ضيقة وهي سياسة جاء بها الاحتلال الامريكي للعراق بعد العام 2003 الانها فشلت في تمزيق المجتمع العراقي ، وهذه الحالات الشاذة وان حصلت فلم تكن مستمرة انتهت مع الظرف الذي نشأت فيه .

فأن تختلف عني واختلف عنك في رأي وفكرة اوقرارهذا لايعني الانعزال ، وان نختلف في انتماءاتنا اودیننا اوقوميتنا اومذاهبنا الدينية هذا لايعني اننا اعداء وانما يعني اننا متنوعون كما هي الحال الطبيعة التي تضم الالوان والفصول ، فالطبيعة الانسانية والبشرية مختلفة بالفطرة وهي تبحث عن التنوع وهذا مانريد تنمية في النشئ الجديد .

ان مانشاهده اليوم من صراع محتدم بين القوميات والاديان والمذاهب ليس في المجتمع العراقي فحسب بل في جميع المجتمعات والعربية على وجهه اخص يكشف وجود عوائق تجابه التسامح فهو في نظر الاوساط المتصارعة لايعدو كونه قيمه اخلاقية تتحكم به المؤثرات

الاجتماعية والسياسية ، ومانحتاجه فعلاً لتوطيد العلاقة بين الطوائف والقوميات مفهوم يرتكز على اسس متينة تتفادى الاحتكاك على خطوط التماس ، ولاشك ان التسامح لايمكن تحققه بسهوله وتتوقف فاعليته على حجم استجابه الاوساط الاجتماعية والدينية لضروراته وهو امر صعب يحتاج الى تعليم طويل يخفف الانسان من حدة غلوائه وتطرفه واعتداده بنفسه ، ويحتاج عودة متأنية للذات من اجل نقدها وتمحيص بناها الفكرية والعقيدية وتأهيلها لتكون ارضية صالحة لاستنبات انساق قيم التسامح الجديدة .

والرسالات السماوية كلها قد اكدت على التسامح والتعايش وقبول الآخر بين البشرية وذلك لان الاصل البشري هو واحد ، فالقران الكريم يؤكد كما جاء في سورة البقرة الآية 256 ان " لااكراه في الدين " والرسول محمد عليه الصلاة والسلام قال" افضل اخلاق اهل الدنيا والآخرة ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك "، ويقول الامام علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه " عاشروا الناس ان عشتم حنوا وان متم بكوا عليكم " ، وفي القران الكريم والسيرة النبوية العطرة لشواهد واضحة على التسامح.

والمجتمع العربي الاسلامي بصورة عامة والمجتمع العراقي بصورة خاصة بحاجة الى ثورة من القيم السامية تنهض وتنبعث في جسد المجتمع ، من ابرزها القيم الثقافية والمعرفة بحقوق الانسان وقبول التعددية واحترام الرأي والرأي الآخر واجتناب اساليب العنف والارهاب للوصول للغاية ،فتاريخ الاستبداد في المجتمعات العربية كان قد مسخ العديد من معالم الثقافة الاسلامية التي ترتكز على الاعتراف بكرامة الانسان بما هو انسان وبغض النظر عن اي عنوان اخر .

واسس التسامح تقوم على توافر حقوق المواطنة ، وهي التي تتضمن تهيأة الشعب نفسياً وفكرياً وثقافياً للاعتراف بالاخر ، فأن قبول الآخر وقبول التعايش معه امر تفرضه وحدة الوطن من اجل استتباب الاوضاع واستقرار الامن والسلام ، ومن هنا تكون المواطنة احد الاركان الرئيسة بأرساء دعائم التسامح داخل المجتمع ولوبشكل مرحلي ، بل ليست المواطنة سوى الاعتراف بالآخر وبحقوقه وهي قضية تمليها وحدة الوطن والحرية الشخصية والاعتراف المتبادل بين ابناء الشعب جميعاً ، رغم تنوع خصوصياتهم ، اي ان جميع الافراد وفقاً لحقوق المواطنة متساوون بالحقوق والواجبات على اساس التساوي في انتمائهم للوطن الواحد .

ويفترض وجود المواطنة وجود علاقة تبادلية بينها وبين مسألة الولاء للوطن ، فحين يكون الشعب متعدداً قومياً ودينياً ومذهبياً كحالة العراق فأنه يحتاج الى اطار يوحد بين الطوائف والاديان المختلفة ، وليس هناك سوى الولاء للوطن ووحده ارضه وترابه ومصالحه فوق الجميع ، وهذا بدوره يتطلب قدراً من التسامح والاعتراف المتبادل بين جميع الاطراف بشكل لايلغي اياً من الخصوصيات ولايتصادم مع اي واحد من الاديان ، فهناك المسلم والمسيحي والصابئي واليزيدي والشيعي والسني والعربي والكردي والتركماني ، اضافة الى الاختلاف الثقافي والفكري والعقيدي وكثرة الاتجاهات السياسية ، فالعراق اليوم بحاجة الى إطار يوحد جميع الطوائف والاديان والشرائح الاجتماعية ، والصيغة المثلى لذلك هو المجتمع المدني والمنظمات الجماهيرية ومنظمات السلم الاهلي فهي التي تضطلع بتهيأة المجتمع وتعليم النشيء منذ نعومة اضفارة على قيم وثقافات تغني وتنمي المجتمع ، فالتسامح هواحد القيم الاساسية التي يعتمدها المجتمع المدني للخروج من ازمة الصراع الديني والسياسي على اساس التكافئ في الحقوق السياسية والعقيدية بعيداً عن الاقصاء والتهميش .

والتسامح على مستوى الدولة يقتضي ضمان العدل وعدم التحيز في التشريعات وفي تنفيذ القوانين على الافراد ، وفي الختام التسامح هو الثقافة الاكثرحاجة اليها لبناء المجتمع من ذي قبل ، لان التسامح هو التربة الخصبة التي تزدهر فيها الافكار والرؤى والابداع ، وعدم التسامح يعني القضاء على الافكار وجعل الانسان مجرد آله تتحرك بأومر محددة وهو اداة لتدمير الآخر ، وعليه يجب ان تنصب مناهجنا التعليمية على تنمية ثقافة التسامح ونشرها بين المجتمع ليعلو ويسمو المواطن عن كل مافيه من انانية وجشع وحب الذات .

المصادر

1.حسن موسى الصفار ، الاستقرار السياسي والاجتماعي ضروراته وضماناته ،الدار العربية للعلوم ،بيروت ،2005.

2.ماجد الغرباوي ، التسامح ومنابع اللاتسامح فرص التعايش بين الاديان والثقافات ، مؤسسة العارف للمطبوعات ، بيروت ،2008 .

3. د. عبد الحسين شعبان ، سؤال التسامح ،مركز عمان للدراسات حقوق الانسان ،2002.

4.خضر دوملي ، مقالات صحفية في التعايش وبناء السلام من نينوى وكركوك،مطبعة كاروان، اربيل ، 2012.